الوجه الآخر للغربة
في شعر عبد المحسن الكاظمي

أ. م. د. يونس عباس حسين
الجامعة المستنصرية / كلية التربية الأساسية

ما نريد أن نتحدث عنه هو الحديث عن الغربة في شعر شاعر عراقي اكتوى بنارها زمناً طويلاً ولكنه استطاع أن يجد المعادل لاحتراقاته وآلامه فلم توقعه الغربة في دائرة اليأس وخيبة الأمل كما أوقعت أكثر الشعراء فراحوا يبكون حاضرهم ويلوذون بالماضي يستنطقون أطلاله ورممه كنوع من الحرية التي يفتقدونها ، لذلك سيكون الحديث عن الغربة بوجهها الإيجابي وهو وجه لافت للنظر في شعر الكاظمي[1]، وحالة متميزة بين شعراء عصره حتى الذين يقتربون منه في هذه الميزة فهم يختلفون عنه من حيث غزارة شعره في هذا النوع من الشعر ، وهو أمر جعلنا نغض الطرف عن وجه الغربة السلبي الذاتي الذي يتصل بوضع الشاعر في المجتمع واضطراره إلى الفرار إلى فكرة الموت أو الهرب أو اليأس أو الارتماء في أحضان الطبيعة .

وسنعاين الغربة في شعر الكاظمي من خلال الصوت النضالي الذي تجلى في شعره منذ أن وطأت قدماه أرض مصر حتى وفاته في غربته .

وابتداءً نقرر أن الغربة بمعنى مغادرة الوطن كرهاً أو طوعاً تكون في الغالب لأسباب سياسية أو اقتصادية أو ثقافية ولقد كانت بحق محنة الإنسان القديم والحديث .

(١) أبقيت حياته الشخصية وسيرته خارج نطاق البحث، ولم آخذ منها إلاّ بمقدار ما يضيء جوانب هذا البحث وللاطلاع على حياته وسيرته يراجع: شاعر العرب ، الكاظمي ، حياته وشعره ، محسن غياض ، مؤلفات علي عبد الرحيم، ذكرى شاعر العرب الكاظمي في ذكراه الثلاثين ، شاعر الكفاح العربي الخالد .

وحين نتعرض لظاهرة الغربة عند الكاظمي وما قال فيها من شعر وحين نقف على دوافع هذا الشعر وخصائصه نعرف أن هذا النوع من الشعر كان يفيض فيضاً شديداً بسبب الظروف التي أحاطت بالشاعر في وطنه العراق أو في منفاه في مصر .

دوافع هجرة الشاعر :

لكي نستطيع الإجابة عن السؤال الذي اختلف فيه مؤرخو الأدب العربي الحديث في أسباب هجرة الشاعر علينا أن نطلع على الأحوال السياسية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية التي عاصرها، فمنذ أن صدر قانون الولايات العثمانية عام ١٨٦٤ الذي قسم الدولة العثمانية إلى سبع وعشرين ولاية والعرب يعانون من ويلات لا تحصى في ظل الحكم العثماني الجائر، وعاشت الأمة العربية حالة بشعة من التخلف والجور والانحطاط كادت تقضي على وجود الأمة العربية وعلى شخصيتها لولا قوة الشخصية العربية ومناعتها ومقاومتها وأوجد الحاكمون نمطاً من التعليم المتخلف عقلياً يقوم على تقديس الخلافة العثمانية والتقيد بالخرافات والأوهام ولغته الوحيدة هي التركية وكان العثمانيون متعصبين كل التعصب وينتقصون كل ما هو عربي كما أن السلطة عمدت على استمرار الطائفية وتغذيتها وكانت الدولة تعترف لكل طائفة من طوائف غير المسلمين بشخصية معنوية وتمنح رجال الدين سلطات خاصة على شؤون أبناء طائفتهم(١). لذلك بقيت البلاد العربية تتخبط في كثير من العلل المزمنة ، وكحال بقية البلاد العربية إبان الحكم العثماني المستبد فقد شهد العراق أحداثاً جسيمة وعاش أهله حياة التخلف والاضطهاد وقد سجل لنا تاريخ الأدب العربي الحديث نماذج عديدة لذلك الوضع المتدني وما كان يعانيه الشعب من شظف العيش حتى أن بعض شعراء العراق كان يعمل في الأسواق للحصول على رغيف الخبز(٢).

إن ضيق الحياة وقسوة الحوادث واضطراب السياسة وفقدان الأمن تتحول إلى صرخات شاكية وقد كان الأخرس البغدادي أكثر الشعراء تشكياً فيقول :

(١) ساطع الحصري : البلاد العربية والبلاد العثمانية ، ص٧٦ .

(٢) محمد مهدي البصير ، نهضة العراق الأدبية ، القرن التاسع عشر ، ص١٣ .

تـأبى المـروءة أن آرانـي واقفـاً ... فـي موقـف يجعـل العزيـز ذلـيلا
أو أننـي أرضـى الهـوان وابتغـي ... بـالعز لا عـاش الـذيل بـديلا[١]

ومثيل شكوى الأخرس أو أقل شكى الشعراء الآخرون من نكد العيش واستبداد المحتل ومنهم عبد الباقي العمري :

مـا لزمـاني دون كـل الأزمـن ... أوقعـه الله بـداء مـزمن
يقصـي الأعـالي ويقـرب الـدّني ... ويعتنـي بهـم وعنـي يغتنـي[٢]

وتستمر الصور الحزينة القاتمة من خلال أبيات الشاعر عبد الغني الجميل التي يصرح فيها بالمغادرة :

عـلام الإقامـة فـي بلـدة ... نعـد بهـا مثـل حمـر الـنعم
فهـلا رحلنـا إلـى غيرهـا ... لنحظـى بعـز وعـيش أتـم
فـلا بـارك الله فـي بلـدة ... تعـد الأسـود بهـا كـالغنم[٣]

وليست هذه المقاطع الشعرية مجرد شكوى من الزمان والحياة لو لم تكن ثمة بواعث ولو لم يكن هناك ظلم وفساد نظام[٤] واستمر هذا الحال فشمل مرحلة الشاعر، ومن خلال استعراض الحالة المتردية التي وصل إليها العراق نستطيع أن نتبين أسباب هجرة الشاعر ودوافع غربته وهي كثيرة كما صورها مؤرخو الأدب ومنها : نشاطه السياسي ضد الدولة العثمانية ومضايقة السلطات له وفي هذا العامل أيضاً يقول محمد يوسف نجم "ضغط حكومة الاستانة على رعاياها والسبب في ذلك أنها بضعفها وتهالكها آونة ذاك كانت تخشى كل حركة تحريرية تبدو بوادرها بين الشعب وتحاول خنقها في المهد لذلك كانت تأخذ بشبهة وتحرك البريء لأضعف الشكوى مما جعلهم يحاولون

(١) عبد الغفار الأخرس : الطراز الأنفس ، ص٤٣٧-٤٣٨ .
(٢) عبد الباقي العمري ، الترياق الفاروقي ، ص٣٩٧ .
(٣) إبراهيم الوائلي : الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر ، ص١٧١ .
(٤) ديوان عبد المحسن الكاظمي ، المجموعة الثانية ، مقدمة روفائيل بطي ، ص٤ .

زحزحة عبء هذا الضغط عن كواهلهم بالمهاجرة . إما إلى مصر حيث مجال العمل أوسع وأكثر إظهاراً لكفاءات وحيث يتمتع الناس بحرية أكثر أو إلى أوربا أو أمريكيا حيث يستنشقون عبير الحرية المنعش"[١] وأنا أرجح هذا الرأي القائل بنشاطه السياسي فقد أثر جمال الدين الأفغاني أثناء وجوده في العراق على الكاظمي تأثيراً كبيراً أيقظ فيه العواطف الوطنية وتشبع بحب الحرية، وبعث في نفسه التحرر والثورة على العبودية والبغي . وإذا ما علمنا أن الأفغاني اتهم بالعمل على (استقلال الأقطار العربية) [٢]، أيقنا عمق ذلك التأثير فقد جاهر الشاعر بنواقص الحكم فكاد يلحق به الأذى لولا رحيله[٣].

ولكي نكون أكثر دقة في تشخيص دوافع هجرته علينا أن نسأل الشاعر عنها وانا لنجد الجواب في شعره وهو يتحدث عن وطنه العراق ويدعو صراحة إلى المغادرة بعد أن بلغ الضجر والضيق وسوء الحال مبلغه فقد كابد فيه كثيراً ولم يجن ما غرسه في أرضه .

بعداً لأرض قد أقمتم بجوها زمناً أكابد أعظم البرحاء
أرض غرست بها الرجاء فأثمرت جنباتها لكن بعكس رجاء[٤]

إن بقاءه أو رحيله مرتبطان بالعز والعلى الذي يبغيه فلما لم يوفرهما الوطن طلب الرحيل :

أقيمي على العز أو فارحلي وإن سامك الهون لا تنزلي
وهبي إلى الرحل محمودة فقد طال مكثك في المنزل[٥]

وهو يطلب الرحيل بعد أن ضاقت الأرض به :

(١) محمد يوسف نجم : القصة في الأدب العربي الحديث ، ٨٤-٨٥ .
(٢) سعدون حمادي وآخرون : دراسات في القومية العربية والوحدة ، ص١١٤ .
(٣) أحمد قبّش ، تاريخ الشعر العربي الحديث ، ص٩٣ .
(٤) ديوان الكاظمي ، ٤١/١ .
(٥) الديوان ، ١٩/١ .

ضـاقت بـي الـدنيا بمـا رحبـت فكـل رحـب مـن أرضـها حـبس[١]

وعلام البقاء وقد أفرغت كأسه بعد أن ضاقت الدنيا بعينيه وعدا عليه الأسى :

كانـت كؤوسـي بـالأمس مترعـة واليـــوم لا خمـــرة ولا كـــأس
عدا عليّ الأسى فما نفع القلب حســـامي ولا وقـــى التـــرس[٢]

كان أمله في الرحيل أن يبلغ مناه ويعيش بعز وكرامة فالرحيل بالنسبة له فرصته الوحيدة لنيل مكانته الرفيعة :

فـــلا تتـــوانى لنيـــل العلـــى إذا ســـنحت فرصـــة فـــأعجلي[٣]

وكيف يرى بجدول والبحار الواسعة ملكه :

ومـن عجـب تنتمـي لـي البحـار وأرضـــى مـــن المـــاء بالجـــدول[٤]

ونراه في قصيدة أخرى يشير إلى الحياة العزيزة التي شدّ الرحال من أجلها :

يـا نفـس لا تطمحـي إلـى بلـد يعضـــــني شـــــيخها وأمردهـــــا
تـــوردي العـــزّ واتركـــي بلـــداً تظمـأ بجنـب الحيـاض موردهـا[٥]

"شاركت تلك الظروف جميعها في صنع القرار" فكان الرحيل .

رحـل الشـاعر مـن العـراق شـريداً يفـتش عـن حريتـه فكانـت بوشـهر المدينـة الإيرانيـة[٦] محطتـه الأولـى حيث أقام فيها ستة أشـهر ثم غادرها إلـى الهند عن طريق البحر ومكث فيها أشهراً قليلة عند صديقه الشيخ محد المازندراني في حيدر أباد .

---

(١) الديوان ، ٤١/٢ .
(٢) الديوان ، ٤١/٢ .
(٣) الديوان ،١٩/١ .
(٤) الديوان ، ١٩/١ .
(٥) الديوان ، ٥٠/٢ .
(٦) الديوان ، ٤/٢ ، مقدمة روفائيل بطي .

وفي محطته الأولى لم نسمع له شعراً يحترق فيه شوقاً إلى وطنه وإنما كانت بداية غربته حيث كان ناقماً على سوء الأحوال والسلطة الحاكمة في العراق كارهاً الإقامة في بلده وله في ذلك بيتان يمثلان غضبته وثورته :

بعداً لأرض قد أقمت بجوها زمناً أكابد أعظم البرحاء
أرض غرست بها الرجاء فأثمرت جنباتها لكن بعكس رجائي[1]

ولكن هذه الثورة لم تكن إلاّ ثورة مفتعلة وهذا الغضب على وطنه لم يعمر طويلاً فسرعان ما تهيجه الذكريات إلى وطنه العراق وهو في غربته فيحن حنيناً صامتاً مرة وحنيناً ثائراً مرات[2].

كانت مصر نهاية مطاف الشاعر حيث وصلها عام ١٨٩٩م. وفي مصر يمضي الشاعر بقية عمره بعيداً عن وطنه .. لكن طوال تلك الفترة لم ينسه فقد أبدع فيه قصائد رائعة تنز ألماً لفراقه والبعاد عنه .

وفي بداية غربته في مصر يلقي الكثير من التعب والفاقة ويشعر بالأسى والحزن فيقول :

لو علم النجم بالذي بي ما طلع النجم واكفهرا
واليوم أصبحت في ديار أبى بها الخير أن يدرا[3]

واشتدت معاناته في مصر لاسيما بعد وفاة صديقه الوفي الإمام محمد عبده :

أصبحت بعدك يا محمد بين شدقي أرقم
أصبحت من دهري ولا أدري بأي احتمي
أمن الظبي بمثلم ومنالقنا بمحطم

---

(١) الديوان ، ٤١/١ .

(٢) ألبير ، مهدي الكاظمي ، ص٢٥ ، ينظر : الديوان ٦/١ ، مقدمة الأستاذ مصطفى عبد الرزاق ، وفهمي ، ماهر حسن : الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث ، ص٣٧ .

(٣) الديوان ، ١٢٤/١ .

ومـــن الأنـــوف بأجـــدع ومـــن الأكـــف بأجـــذم
قـــد كنـــت إن عـــبس الزمـــا ن أريـــه كيـــف تبســـمي[1]

وفي قصيدة أخرى يستذكر النزيل مصر ويشكوها :

نزيلك يـا مصر تعاوره الضنى وعاثت به أيدي الخطوب العوائث(٢)

يختار الشاعر منفاه في مصر ، وهناك تتأجج عواطف الحنين والانتماء والحزن الغاضب في شعره .. وكأنما بدأ تحول صميم يفرض نفسه على مساره الشعري منذ أن وصل مصر وانصرف عن أجواء العراق واختناقاته ، وهو في مصر لم تشغله حياتها عن تصوير أحاسيسه العميقة وما تتلون به من ضروب النجوى وما ينيرها من سحر الهوى فلم تخل قصيدة واحدة منذ دخوله مصر حتى مفارقته الحياة من الحنين والشوق إلى وطنه العراق وابتداءً من أول قصيدة له منذ وصوله مصر يتفجر بركان العواطف والألم الممض حنيناً وتشوقاً إلى وطنه فنسمعه يقول في أول قصيدة له :

سـقى الله داراً تـيم الصـب نشـرها وأخـــرى بهـــا داريـــة تتظـــوع
لقد صرت في هذي وقلبي معلق بتلـك إذاً مـا أنـا اليـوم أصـنع
وأصـبحت أسـوانا فـلا أنـا ميـت فأسـلو ولا حـي يرجـع فـأطمع[3]

فهو طالما أحرق نفسه في غربته ليعلن إخلاصه الدائم وعمق محبته وولـه بوطنه الذي فارقه على مضض :

جـــوي أودى بقلبـــك أم وجيـــب غـداة حـدا بـك الحـادي الطـروب
بعدت عن الديار وصرت تدعو علـــى البعـــد الـــديار ولا مجيـــب
وفـــي مصـــر أراك وأنـــت لاه وقلبـك فـي العـراق جـوي يـدوب

(١) الديوان ، ٩٠/٤ .
(٢) الديوان ، ٤٩/١ .
(٣) الديوان ، ٤٩/١ .

وأصـبو للحمـى بجميـع قلبـي كـذا فليصـب للـوطن الغريـب[1]

ومن قصائده التي تحمل إلينا لواعج الحب والحنين قوله :

إذا قيـــل بغـــداد كواهـــا بلاعجــه الحنــين نقــد كــواني
أشـــاطرها الحنـــين ولا أبـــالي أأسـعدني المـداجي أم لحـاني[2]

وهو في هوى العراق لا يرى بديلاً حتى لو أعطى ملك الأرض :

أبغــداد ابشــري وثقــي بــأني بحبــك ســالك ســبل التفــاني
ولــو أعطيــت ملــك الأرض طــراً بغيـر هـواك عيشـي مـا هنـاني[3]

الوحدة العربية الوجه الآخر للغربة :

ما زالت مهمة الشاعر الأصيل عسيرة وهو يحاول أن ينفذ بتجربته وحدسه إلى أعماق قضايا العصر ، وهي مهمة تقتضي القدرة الفائقة على معاناة الحياة بقدر ما تقتضي القدرة على التعبير عن تلك المعاناة التي تتحول إلى حركة نابضة متقدة ترسم لنا موقف الشاعر من قضايا وطنه وأمته ولاسيما في حقبة من تاريخها احتملت وجود مستعمر يحاول طمس هويتها وهدم كيانها وكان الشعر سباقاً دائماً في النضال والتعبير عن هموم الأمة لتنهض من غفوة أو تستوي بعد كبوة ، وفي الوقت ذاته كان من المستحيل على الشعر الذي عاش فترات انحطاط وركود القرون الماضية أن يعبر عن ضرورة الإحساس القومي للأمة، ولم ينزع ذلك المنزع إلاّ حينما تعرض وجودها إلى التهديد وإلى عوامل عديدة تريد إضعاف الأمة واجتثاثها وإزاحتها عن الوجود فتحركت عوامل المقاومة في روح هذه الأمة وعقلها وحسدها تؤججها النفوس الأبية المتمثلة بنفوس

(١) الديوان ، ٦٣/١ .
(٢) الديوان ، ١٢٩/١ .
(٣) الديوان ، ١٣٣/١ .

الشعراء المبدعة التي تتميز عن بقية الخلق بسرعة التفكير والإحساس "بلا تنبيه عاجل مباشر ومقدرة أكبر على التعبير عن الأفكار والأحاسيس العامة عند الناس"(١).

وإن التعبير عن تلك المعاناة يكون أكثر وضوحاً عندما ينتزع الشاعر من وطنه كرهاً ويحس بالأسى والحزن الشديد لأنه يفارق أناساً وأشياء كثيرة فهو يفارق وطناً ولد فيه وامتلأت رئتاه من هوائه ويفارق رفاق الصبا والشباب وربوعاً شهدت ساعات هنائه فضلاً عن ذلك كله يفارق شعباً مكبلاً بالأغلال والشاعر لا يملك في غربته إلاّ الالتفات إلى ما خلفه وراءه متحلياً بشيء من الصبر والحزن .

والكاظمي حين قرر الرحيل فلأن حالة الوطن وأهله بدأت تحز في نفسه وتدفعه إلى اليأس ، وكان هذا اليأس يعاوده في بداية غربته ، ولكن الشاعر الذي غادر وطنه كرهاً انفصل عنه لم ينعزل عنه ولم يقف موقف المتفرج من الأحداث الخطيرة التي كان يمر بها وطنه، فالشاعر الذي ابتعد عن وطنه يظل مشدوداً إليه فنراه لا يقنط ولا يستسلم لذلك اليأس ويزيح عن صدره تلك الأوهام فيسعى أولاً إلى التحقق من تلك الأحداث ويتأمل حال وطنه فيخضع يأسه إلى جدل ومناقشة وهكذا كان الكاظمي لا يستسلم ليأسه فيداويه أولاً بشيء من الصبر :

كم نحتني النائبات وكم ... لجت الأحداث في طلبي
فرأتني أيما رجل ... صابر في الدهر محتسب(٢)

وبعدها ينشأ صراع محتدم بين الشاعر وأحاسيسه فيستحيل يأسه وقنوطه إلى تفاؤل وإشراق ، وعندها يبرز الوجه الاخر للغربة وأعني الوجه الإيجابي ويتلاشى وجهها السلبي الوجه الكالح الذي يدفع الشعراء إلى الفرار إلى فكرة الموت أو الهروب أو الطبيعة وهذا يفسر لنا خلو شعره من وصف الطبيعة حيث لم نجد له في هذا النوع من الشعر إلى بيتين قالهما في وصف طير(٣) ومع هذا فهو يخرج أيضاً في هذه القصيدة إلى

(١) محمد خلف الله ، من الوجهة النفسية ، ص٣٦ .
(٢) الديوان ، ٨٥/١ .
(٣) الديوان ، ٢٤٢/٢ .

غرضه السياسي . إن عملية الانتزاع من الوطن خلقت معاناة جديدة في شعره وولدت حساً قومياً ملتهباً وحباً عميقاً للأرض العربية وشدة الارتباط بها ، وهذا الحس القوي الملتهب الذي خلقته حالة النزوح عن الوطن يستحيل في نفس الشاعر إلى ثورة تجعله متحكماً بزمنه الذي أذاقه الأمرين ، وتتحول قصائده التالية إلى أغانٍ وأهازيج تتغنى بحب العرب وبالوحدة :

وعسـانا نـرد غائلـة الدهـر ونغدو في الدهر محتكمينا[1]

وهو ابن العلا الذي يعز عليه ان يهون :

كل يوم يسومنا الدهر خسفاً وعزيز على العلى أن نهينا
كيف ترضى العلى ونحن بنوها أن ترى آلام ما يسيء البنينا[2]

وبعد تلك الثورة يسعى الشاعر إلى تصحيح وضعه المأساوي عندما ينفلت من آلامه ومعاناته ويرتمي في أحضان الأمة العربية وتكون بداية قهره للغربة حينما يتنفس الشاعر نسيم الحرية تاركاً خلفه تلك المعاناة والاحتراقات .. فتبدو الحياة من حوله زاهية فهو في دعوته إلى الحرية والمساواة ومناداته بالوحدة العربية واتفاق الأمة إنما يقهر غربته الضارية فيبدو كل شيء من حوله جميلاً ساراً .. ويغدو كل بلد عربي يحله بلده .. وكل أرض عربية تقف عليها قدماه أرضه . لقد وعى الشاعر مهمته في الحياة وأمن برسالته تجاه أمته العربية وهي تعاني ما تعانيه من استبداد وظلم وشر ويصور الكاظمي ذلك من خلال أبياته الآتية التي تقطر ألماً على أبناء عروبته :

أخوانكم في العرى صرعى ونسوتهم مروعات ولا مأوى ولا حرم
أسرى القيود سبايا لا تصير لها إلاّ الزفير وإلاّ الأربع السجم
حيث الجسوم شظايا والرؤوس هبا تذاع للعين حيناً ثم تكتم
لم ينج من ظلم أهل الظلم ذو نفس حتى الرضيع وحتى الرحم والهرم

(١) الديوان ، ١٧١/١ .
(٢) الديوان ، ١٥٧/١ .

ومنتهى الجبن أن يسعى على نفر عزل وما اقترفوا ذنباً ولا اجترموا
كأنهم ويد الأطماع تجذبهم شاة تخطفها الذئبان أو نعم[1]

ويكشف في الوقت نفسه نوايا المستعمرين وأ طماعهم :

لا قدّس الله طماعين ما فتئوا يسدون لنا البلوى وما غنموا
أضحت مطامعهم في كل مجتمع كالنار تأكل ما تلقى وتلتهم
مآرب وآمال يحلمون بها لا بلغوا مآرباً مما به حلموا[2]

وهو يقف بنفس غاضبة ثائرة بوجه المعتدين والطامعين متحدياً فقد آن للغضب أن يتفجر وللمعتدين أن يرحلوا .. وللأوطان أن تتوحد . فنراه يقتحم الموت في سبيل رسالته التي آمن بها وناضل من أجلها :

وإن لم تكن نفسي لأوطاني الفدا فليس لنفس مثلها أبداً ذكرُ
لحاقي بقومي والخطوب ملحة مناي ولو أغدو بهم وروحي هدر
أصول حيال المستميتين دونهم وأسطو كما يسطو العفرني وافتر
فأما حياة يعظم الفخر عندها وأما ممات عنده يعظم الأجر[3]

وينقم على ذلك الصمت ويشخص علته بأنها الجهل

وأحصد رقاب الجهل بالعلم الذي يغني شباه عن ظبي وقناء
أن تمتلكه تمتلك أقصى المنى وتظل في رغد وطيب هناء[4]

يحز بنفسه أن يرى الشرق كالطفل يلهو .. والغرب في تقدم :

أنظر إلى الدنيا ولا تعجب لمنظرها العجب

---

(١) الديوان ، ١٠١/١ .
(٢) الديوان ، ١٠٣/١ .
(٣) الديوان ، ١١٨/١ .
(٤) الديوان ، ٩٢/١ .

الغـــرب فـــي يقظاتـــه كالليـــث أدرك مـــا طلـــب
والشـــرق فـــي غفلاتـــه كالطفـــل يلعـــب باللهـــب[1]

ولكن هذا لا يجعلنا نشك في درجة إيمان الشاعر بشعبه وثقته المطلقة بأصالة أمته العربة :

ألســـتم خيـــر مـــن نزلـــوا إلـــى الميـــدان أو ركبـــوا
لكـــم فـــي نجـــد صـــعد وفـــي أغـــواره صـــيب
دعـــاكم مـــن يغـــار علـــى المـــواطن وهـــو مغتـــرب
ومـــا أحلـــى انتســـاب فتـــى إلـــى الأوطـــان ينتســـب[2]

وهو دائم التغني بأمجادهم وعزهم علاهم :

أيهـــا العـــرب الكـــرام ثقوا أنتم لباب الناس إن نخلوا
نســـتعذب ا لأوطـــان قـــولكم مـــا عنـــك يـــا أوطاننـــا يـــدل[3]
هل فوق ظهر الأرض نار قرى أبـــداً لغيـــر العـــرب تشـــتعل

وللعروبة عنده عشق مقيم لا يبارحه لحظة واحدة .. فيتمنى أن يكون الناس جميعاً عرباً :

ليـــت الأنـــام جمـــيعهم عـــرب شـــبّوا وشـــابوا بعـــدما اكتهلـــوا
أوليـــت كـــل المـــالكين لهـــم عـــرق بـــذلك الأصـــل يتصـــل[4]

والشاعر بشير العرب :

أنـــي بشـــير العـــرب أيـــن توطنـــوا ولكـــل قـــوم منـــذر وبشـــير[1]

---

(١) الديوان ، ٩٢/١ .
(٢) الديوان ، ١٣٩/١ .
(٣) الديوان ، ١٠١/١ .
(٤) الديوان ، ١٤٦/١ .

والشاعر يبشر بمجتمع عربي يقوم على أساس العدالة والحرية والمساواة والوحدة تحت راية قائد واحد :

أيهـــا العـــرب تعـــالوا نلتقـــي ... فـــي طريـــق المجـــد حتـــى نصـــلا
نلتقـــي تحـــت لـــواء واحـــد ... نســـجل النصـــر لـــه إذا ســـجلا
ونـــولي الأمـــم فينـــا قائـــداً ... يبعـــث العـــزم ويحـــي الأمـــلا
قائـــد أن أبهـــم الأمـــر ســـطا ... أو دجـــا الخطـــب أنـــار الســـبلا
هـــو للـــدين وللـــدنيا يـــد ... تطلـــق الأيـــدي وتبـــري الشـــللا
يـــدفع الظـــالم عـــن أوطاننـــا ... ويقـــيم العـــدل ، أو يعتـــزلا
وإذا زلـــت بنـــا : أقـــدامنا ... غفـــر الـــذنب لنـــا والـــزللا[٢]

وإذا جمعنا آراء الكاظمي التي قالها في وحدة الأمة العربية والوثبة التي تمجد العرب لدلنا ذلك على وعيه الكامل بحقيقة الواقع المأساوي الذي آلت إليه الأمة العربية ، وفي الوقت نفسه نطلع على وعيه الكامل بالمرحلة التاريخية التي يمر بها العرب .. ومن هنا كان إيمانه الراسخ في دعوته إلى الوحدة العربية فراح ينادي بسها جهرا :

ســـيروا قواصـــد للمنـــى ... أو تبلـــغ الأوطـــان قصـــدا
وتـــرى الـــبلاد جميعهـــا ... علمـــاً طويـــل ا لظـــل فـــردا
يـــا حبـــذا العلـــم الـــذي ... أن تقصـــر الأعـــلام مـــدا[٣]

وقوله أيضاً :

لـــيس لنـــا مـــن بلـــد ... أحـــق منـــه بلـــد
كـــل بلادنـــا لنـــا ... أغوارهـــا وألا نجـــد

(١) الديوان ، ٢٠٩/١ .
(٢) الديوان ، ٢٩٨/١ .
(٣) الديوان ، ٢٣٩ .

لا رف إلاّ علـــــــــــــــم علـــى الجميـــع مغـــرد[1]

والكاظمي بإيمانه الواعي بوحدة الشعبي العربي وبأن العرب جميعاً شعب واحد ولا قيمة للأرض المنفصلة عن الوطن الكبير قد أوجد المعادل لغربته الموحشة .. وتمكن من آلامه فأصبحت كل الأوطان وطنه :

إلـى العـرب الكـرام لكـل أرض أمـد يـدي أطلـق مـن لسـاني
ومـا أرض العـراق لمـن حباهـا وأرض الشـــام إلاّ جنتـــان
إذا ائتلفـــا فقبلهمـــا رأينـــا تـألف فـي السـماء الفرقـدان
جميـع العـرب إخـوان : فهـذا لهـذا فـي العلـى أقـوى ضـمان
فـــلا هـــذاك نجـــدي ولا ذا حجـــازي ولا هـــذا يمـــاني[2]

وكيف لا يقهر غربته وبلاد العرب جميعاً بلاده يتغنى بها ويحبها .

أحـــن إذا قبـــل العـــراق وانحنـــى وأشـــهق إن قبـــل الشـــام وأزفـــر
وأطرق أن قبل الحجاز على الجوى وأعجـب إمـا قيـل مصـر وأبهـر
منـى الـنفس أن يلقـى العراق وغيره من الخير ما يهوى وما يتخير[3]
جميـع بـلاد العرب فـي القدر واحد إذا وزنـوا البلـدان يومـاً وقـدروا

وهو في مصر يشارك أبناءها جهادهم وكفاحهم ضد المستعمرين ويتحسس آلامهم وآمالهم :

وقمـت مغاضـباً شـعباً فشـعبا وكـل جـوانحي فيهـا شـعوب
أيـا أهـل الحميـة كيـف أضـحى حمـاكم وهـو مـن عـز حريـب

(١) الديوان ، ٢٢٠/١ .
(٢) الديوان ، ١٣٢/١ .
(٣) الديوان ، ٥/١ .

ألـيس الشـرق بالإشـراق أحـرى وأجـدر منـه بـالغرب الغـروب[1]

وهو ينسى تلك الآلام الممضة وتتلاشى غربته حين ينادي بالرابطة الروحية التي تشد العرب إلى بعضهم ليسقطوا المستعمر وحواجزه المصطنعة :

أحبـائي هزتنـي إليكم صبا الحمـى وأرواح مصـر عـن شـذى الكـرخ تنسـم
فرحـت أداري الحـب ثـم أذيعـه وأعلـــن أحيانـــاً هـــواكم وأكـــتم
ومـا بـكِ يـا مصـر ببغـداد نـازل وفـي جلـق أدهـى وفـي القـدس أجسـم
إذا مـا تـوالى جرحنـا وتعـذرت مراهمـــه فـــالجرح للجـــرح مـــرهم
تجمعنـا الأيـام والخيـر ضـاحك يعـم الـورى والشـر يبكـي ويلطـم[2]

وبعد ذلك كله نستطيع أن نقرر : أن ظاهرة الحنين في شعر الكاظمي كانت تعبيراً عن أزمة الشاعر في عصره بعد أن وعى واقع مجتمعه وما آلت إليه حالة الأمة العربية وهي ترسف تحت قيود المستعمر فالكرامة مهدورة والقيم تلاشت والنفوس امتد إليها اليأس والأوطان تفرغ من مفكريها وأدبائها .

إن تاريخ الأدب العربي يحدثنا عن الشعراء الذين اكتووا بنار الغربة واحترقوا اشتياقاً إلى أوطانهم ولكنهم تخلصوا من آلامهم وعذاباتهم بعودتهم إلى أوطانهم فأنات شوقي التي تبدوا لا نهاية لها كما في قوله :

وسلا مصر هل سلا القلب عنها أو أسـا جرحـه الزمـان الموسـي
مسـتطار إذا البـواخر رنـت الليـل أو عـوت بعـد جـرس
يـا ابنـة مـا أبـوك بخيـل مالـه مولعـاً بمنـع وحـبس
أحـرام علـى بلابلـه الـدو ح حـلال للطيـر مـن كـل جـنس
نفسـي مرحـل وقلبـي شـراع بهمـا فـي الـدموع سـيري وراسـي
وطنـي لـو شـغلت بالخلـد عنـه نـازعتني إليـه فـي الخلـد نفسـي

(١) الديوان ، ٦٨/١ .
(٢) الديوان ، ٢٧٣/١ .

شـهد الله لـم يغـب عـن جفـوني شخصـه سـاعة ولـم يبخـل حسـي[1]

إن هذه الأبّات قد انتهت بعودته إلى الوطن.

ومحمود سامي البارودي كان يعتصر ألماً لفراق وطنه ويحلم باللقاء حتى أنشد :

أبيـت فـي غربـة لا الـنفس راضـية بهـا ولا الملتقـى مـن شـيعتي كثـب
لا يخفض البؤس نفساً وهـي عاليـة ولا يشـين بـذكر الخامـل النشـب
فـإن يكـن سـاءني دهـري وغـادرني فـي غربـة لـيس لـي فيهـا أخ حـدب
فسـوف تصـفو الليـالي بعـد كـدرتها وكـل دور إذا مـا تـم ينقلـب

إن البارودي قد سعد بلقاء الأحبة وتحقق حلمه الكبير بعودته على وطنه أما الشاعر الكاظمي الذي لم يسعد بالعودة إلى وطنه فقد سجل ظاهرة متميزة في الأدب العربي في طريقة قهره للغربة الموحشة بنضاله من أجل الوحدة العربية ولم الشمل حيث تلاشت غربته وتخلص من آلامه .

إن الوحدة العربية الغرض الرئيس الذي أدار عليه جلّ شعره فدوى صوته في البلاد العربية وصك مسامع الطغاة الحاكمين الذين أنذرهم بثورة تعيد للأمة العربية عزتها وللعروبة مجدها العظيم لقد كان أمله في وحدة العرب ولحمتهم في كثير من قصائده ا لمصدر الأول لسعادته التي لا تحدد بحدود .

ثم ننتقل إلى مواجهة الصفة الفنية أو التقنية الأسلوبية التي تتشكل عليها مستوى التجربة في رأس ما يهمني أن أشير إليه هنا أن الشكل البنائي العام لقصائد الغربة كما هو الحال وفي شعره عامة اتباعي أصولي من ناحية نظام الأنغام والقوافي فهو قد حافظ في قصائده على هيكل القصيدة القديم وأبقى على شعره تلك المتانة اللغوية الجلية واستخدام طرق المجاز لذلك فإن الانطباع العام الذي تتركه عندي قراءة قصائد الغربة من الناحية الأسلوبية هو أن الشاعر الكاظمي على الرغم من علائم التوفيق التي لازمت قلمه وتوفر إمكانات الإبداع لم يوفق إلاّ في الصورة الحسية التي غالباً ما تكون معادة ،

(١) شوقي ، أحمد : ديوان أحمد شوقي ، مجلد أول . ج٢ ، ص٤٦ .

ولكن هذه لا تعني عن خطوة أساسية وهي الانتقال بالصورة إلى مستوى أعلى وأعني الصورة الشعرية التي تتنزه عن الرؤية بالحدقة لتسمو إلى الرؤية بالقلب والتي يحل بها في روح المظاهر مدركاً ما يقصّر عنه كل إدراك مباشر ، مبصراً ما لا يبصر بالحدقة الأليفة الداجنة بعد أن تخلص من الوصف التقريري والبرهان العقلي وتكون أقرب إلى التجريد منها إلى الواقعية وتبرأ من أدوات التشبيه ومن الحروف ، تلك الصورة التي لا تكتفي بوصف الشكل واللون فتتعداهما إلى وصف الحركة أي تطور الصورة الشعرية من وضع جامد تقريري إلى وضع دينامي حي ولم نجد له المقدرة على استغلال الصورة وتعميقها بالرمز والإيحاء إلى أقصى حد ممكن للتعبير عن شمولية التجربة وتجسيدها ، إن تشكيل الصورة يستند أساساً عند الكاظمي إلى محصوله التراثي وإلى خزينه الشعري لا الشعوري فصوره محاكاة عنده عن طبع لا عن خبرة حياتية وجهوده كلها مركزة على استعادة صور الأقدمين ، ولكن الشاعر الحق ليس مطالباً فقط بجعل استدعاء الصور القديمة مطيته لإيصال فكرة وإيضاح رؤيته للعمل الأدبي بل هو مطالب أيضاً بجعل استدعاء الصور القديمة مطيته لخلق عالم من الصور تتفاعل جزئياته مع تجربته الحياتية .

وكأنما صوره القديمة المخزونة في ذاكرته تستثيره في ذهنه صوراً جديدة فتحول الألفاظ التي تولد الصور في حافظته إلى طاقة جديدة يكمل بها معالم الصورة الجديدة ، فعملية تشكيل الصورة المستندة إلى مخزونه التراثي الشعري ليست عملية منفصلة عن الشاعر بل عملية متصلة يشارك الشاعر في صنعها وإكمالها لأن في واقع الشاعر صوراً يعجز المخزون الشعري فحسب عن تكوينها كاملة فيكمل الشاعر بأدواته الخاصة بناءها أن تشكيل الصورة لا تكتمل بالاستناد إلى ذلك المخزون وإنما لعله يبدأ بهذه المرحلة مجرد بدء لا يكتمل إلاّ بعمل عنصر أساس آخر هو الشاعر نفسه إن الشاعر هو المبدع الحقيقي والفعال لاستكمال عملية الإبداع ، لهذا لن نبعد عن الحقيقة إذ قلنا أن العمل الفني يفرض تدريجياً لغته الخاصة على الشاعر حيث لا تصلح كل الكلمات المخزونة في الذاكرة والصور العالقة في الحافظة لتكوين عمل فني متكامل فنحن نتحدث

عن عمل إبداعي يمثل ويجسد مواقف وتجارب معينة للشاعر يعتمد على تجربته الشعورية .

والحق أنه لا يوجد على ظهر الأرض إنسان لا يمتلك خيالاً ولكن إذا زعمت أنك تكتب فناً فإنك مطالب بأن تمتلك المقدرة على الالتحام بالأشياء والموضوعات التي يتقبلها الحس بمعنى أنك تمتلك خيالاً مبدعاً ترى من خلاله الأشياء على حقيقتها وفي هذا يكمن الفرق الحقيقي بين الفنان والإنسان العادي . أما الكاظمي فهو لا يمتلك هذا الخيال ذا المقدرة المتمكنة من توحيد الأشياء ويحلق بصوره من خلال تكثيفها وتهذيبها خلال المستقبل والغائب وكل ما يمكن أن يكون بعيداً عن دائرة الآني ، والكاظمي في هذا الإطار ابن منطق العصر الذي عاش فيه لا منطقه الخاص في رؤية الشعر منطق الفنان الأصيل الذي يستطيع باستعداده الخاص وثقافته العميقة وأفقه الواسع أن يكسر تلك الأطر التي ثبتها حوله مجتمعه ورسمت له تلك الصورة الشائهة المهزوزة(١). ذلك الفنان الذي تحدث عنه شكسبير على لسان أحد موهبيه حين قال " أي روح إلهية صاغت روحك حتى جعلتك تلقي آلاف الأطلال على الأشياء في حين لم يخلق إلاّ ظل واحد لكل شيء" إن غاية الكاظمي كما هي عند غيره من شعراء عصره فخامة اللفظة وروعة الموسيقى بحيث يجيء البناء كله على نحو ما كان يبني الأولون ، فهو يكرر المعاني ويعبد الصور فلا نجد في عواطف الشاعر أحاسيسه غير صدى لوجدان الشاعر القديم ليس فيه تطلع إلى ما في العالم والإنسان من الخفي المستتر بمعنى أنه لا يثير انفعالاً كيانياً (فكرياً وعاطفياً معاً) ليس فيه إضافة إلى تراثنا الشعري ، الأمر الذي جعل الناقد الدكتور علي عباس علوان ينعته في دراسته الموسومة (تطور الشعر العربي الحديث في العراق) بالعقم ويعني خلو الفن من الأصالة والإبداع والتوليد وإحداث الجديد فالشاعر لا يملك القدرة التامة ولا البذور الحية لتجاوز الموروث وتخطيه وحتى الانتقاض عليه أحياناً ويسحب الناقد مصطلحه (العقم على شعراء القرن التاسع عشر في العراق جميعهم ولا يخرج عن هذا النعت في رأيه – شعراء النصف أو الربع الأول من القرن العشرين حتى مجيء الجواهري علامة النقلة . وينطلق الناقد في تحليله الممتع من وجهة

(١) ينظر : علي عباس علوان : تطور الشعر العربي في العراق ، ص٢٣ .

نظر الإبداع لا التاريخ مرتكزاً على فهم شعري خاص يدرس الشعر من الداخل لا من الخارج ويعني بما يرى لا بما يقلد ، وعلى هذا الأساس وما دام الشعر في تلك الحقيقة يقف عند ظاهرة التقليد فإن الناقد يشطب عليه ولا يعده شعراً بيد أننا لا ينبغي أن نأخذ مثل هذا الحكم بالإعدام مأخذ الجد فهو لا يخلو من انفعالية و إطلاقية تشوش جهده العلمي ونظراته الثاقبة غير القليلة وفي هذا السياق يعد الناقد تجاهل شاعر القرن التاسع عشر والعشرين الصلة الجوهرية للتعبير الشعري بالدلالة أو المعنى أو المضمون تضحية بالشعر في سبيل القالب ولكنه لم يقف عند هذا الحكم موقف المحلل الموضوعي . ومثيل هذا الحكم حكمه على الشعر السياسي وشعر النضال القومي وأدب التحريض الذي تستمد قيمته من أسباب فنية يتطلبها هذا النوع من الأدب ولكن هذا القول لا يعني أن هذا النوع من الأدب لا يتميز بالجودة والتي تأتي أحياناً من التعويض الذي يعطيه الشاعر للقارئ العربي عن واقعه المتدني الأمر الذي يجعلنا نغض الطرف عن الدخول في مناقشة فنية حوله .

والحق ان قيمة شعر الكاظمي القومي الذي قهر به غربته تنتمي الى أسباب ليست فنية يتطلبها الشعر القومي الذي يحمل سمات القومية داخل الشعر في بنية القصيدة وفي التعامل مع اللغة وغيرها من أشكال العلاقات داخل القصيدة التي تتطلب من الشاعر معنى عقائدياً إلزامياً تفرض عليه ممارسة عملية ونشاطاً سياسياً محدداً ينفذ من خلاله الشاعر إلى قلب الجماهير ويتحدث إليها في فترة حالكة من تاريخ أمتنا العربية ولكن الوعي وقتئذٍ يحتاج من الشاعر أن يكون جماهيرياً أي أن يكون عفوياً . بلغته بعيداً عن الأسباب الفنية التي يتطلبها الشعر القومي لذلك فإن شعره يرتقي بمضامينه التي اختار لها طريق النضال القومي في حقبة من تاريخ الأمة العربية احتملت مستعمر شرس يريد تمزيقها وضياعها .

لقد أسهم شعره في الغربة في تفجير الكثير من الأحاسيس القومية والنزعات الوحدوية ضمن حدود الوطن العربي تأخذه نشوة الطرب بدولة عربية واحدة تحت راية زعيم واحد بعد عبودية دامت عدة قرون .

لـــيس لنـــا مـــن بلـــد أحـــق منـــه بلـــد
كـــل بلادنـــا لنـــا أغوارهـــا وألا نجـــد
لا رف إلاّ علـــى الجميـــع مفـــرد[1]

مراجع البحث :

١. الأخرس ، عبد الغفار ، الطراز الأنفس في شعر الأخرس ، جمعهم أحمد عزت فاروقي ، استانبول ، مطبعة الشركة المرتبية ، ١٣٠٤هـ.
٢. إسماعيل ، عز الدين ، روح العصر ، دراسات نقدية في الشعر والمسرح والقصة ، دار الرائد العربي ، بيروت ١٩٧٨ .
٣. البصير ، محمد مهدي ، نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر ، بغداد ، مطبعة دار المعارف ، ١٩٤٦ .
٤. الحصري ، ساطع ، البلاد العربية والبلاد العثمانية ، القاهرة ، ١٩٦٥ .
٥. حمادي ، سعدون وآخرون ، دراسات في القومية العربية والوحدة، سلسلة كتب المستقبل العربي (٥) ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط١ ، بيروت ١٩٨٤ .
٦. شوقي ، أحمد ، ديوان أحمد شوقي ، م١ ، دار العودة ، بيروت ١٩٨٣ .
٧. علوان ، علي عباس ، تطور الشعر العربي الحديث في العراق ، اتجاهات وجمالات النسج ، بغداد ، ١٩٧٥ .
٨. العمري ، عبد الباقي ، الترياق الفاروقي ، النجف ، مطبعة النعمان ١٩٦٤ .
٩. قبش ، أحمد ، تاريخ الشعر العربي الحديث ، دار الجيل ، بيروت .
١٠. الكاظمي ، عبد المحسن ، ديوان شاعر العرب الكاظمي ، المجموعة الأولى، جمعته : رباب الكاظمي ، الناشر حكمت الجادرجي ، مطبعة ابن زيدون .
١١. ديوان ، شاعر العرب الكاظمي ، المجموعة الثانية ، حققها ونشرها حكمت الجادرجي ، طبع بمطبعة دار إحياء الكتب العربية.

(١) الديوان ، ٢٢٠/١ .

١٢. ديوان عبد المحسن الكاظمي ، المجموعة الثالثة و الرابعة ، جمع وإعداد : رباب الكاظمي ، الجمهورية العراقية ، وزارة الثقافة والفنون ، دار الحرية للطباعة ، ١٩٧٨ .

١٣.نجم ، محمد يوسف ، القصة في الأدب العربي الحديث ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٨٦ .

١٤.الوائلي ، إبراهيم ، الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر ، مطبعة العاني ، بغداد ١٩٦١ .